عبقرية الشريف الرضى

تأليف الدكتور زكى مبارك

بقلم الأديب حسن حبشى

الدكتور مبارك من أكثر أدبائنا إنتاجا . لا يكاد يضع القلم من كتاب حتى يتهيأ لتأليف آخر . وهذه ناحية من النشاط محمودة . وإنه ليخيل لقارئ كتب الدكتور زكى أنه يضن بما يضطرم فى نفسه من خواطر ، وما يجول فى ذهنه من أفكار وآراء ألا يسجلها فى مؤلفات يطالعها الناس ؛ ومن هنا كانت كثرة ما كتب ، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى مؤلفه هذا (ج ٢ ص١٩٧) فى الفصل الذى عقده عن حجازيات الشريف

وكتاب (عبقرية الشريف الرضي) والتصوف الاسلامى آخر مطبوعات الدكتور وليسا آخر مؤلفاته ، وأحسب أن لن يكون ثم كتاب أخير له حتى لا يكون فى الوجود زكى مبارك

والمترجم له من فطاحل شعراء العربية، وهو مغمور إن قيس بأنداده الذين ذهبوا بالذكر والشهرة ، أما الرضى فلم يظفر إلا ببضعة أسطر أو صفحات مبعثرة فى ثنايا الكتب الأدبية ، وببعض مقالات نشرت هنا وهناك ، وذلك على الرغم من الدور العظيم الذى مثله على مسرح السياسة والأدب فى عصره

تناول الدكتور زكى فى هذا السفر صاحبه الرضى من نواح عدة ، إلا فى السياسة فقد مر عليها سريعا، كما ألم ببعض مواقف الشريف وحوادثه، غير أنه كان يعرض أحيانا للرواية دون بحث أو نقد، وقد يكون ظاهرا فيها الوضع . أو ما ترى ذلك فيما نقله عن صاحب التبيان (ج ١ ص ٢٧٨) من أن المرتضى نظم ذات يوم أبياتا فوقف به بحر الشعر ، فأشار على من يحملها إلى الرضى ليتمها فأتمها بقوله:

فردت جوابا والدموع بوادر وقد آن للشمل المشت ورود
فهيهات من ذكرى حبيب تعرضت لنا دون لقياه [illegible]

قال أبو الحسن النحوى : « فأتيت بها المرتضى ، فلما قرأها ضرب بعمامته الأرض وبكى وقال : يعز على أخى يقتله الفهم بعد أسبوع » فما جاء الأسبوع إلا وجاء نعى الرضى . هذا ما نقله صاحب التبيان ، وجاء به صاحب العبقرية ، فانظر ماذا كان تعليقه ونقده عليها . قال : « ... وهذه نادرة يستبعدها الناس ، ولكنها طريفة ، إذ تجعل موت الشريف بالشعر شبيها بحال من يخنقه أرج الأزهار فيموت » أما كاتب هذا المقال فلا يرى فيما نقله الدكتور عن صاحب التبيان إلا قصة ظاهرا فيها الوضع ، وأية دلالة على موت الشريف قد اشتمل عليها البيتان السابقان ؟ ثم أين نقد الدكتور لهذا الوضع الظاهر ؟ أشهد لقد غلب خيال الشاعر على موقف الناقد فى تعقيب المؤلف . فان فى تعليق الأستاذ مبارك بهذه العبارة السابقة روحا من الشعر ، وعبقا من الفن الأدبى

ألم الدكتور زكى بنواح عدة من الشريف الشاعر ، وأحسب أن مقاله عن الجندى المجهول الذى استهل به كتابه ، إنما هو من المقالات التى تظهر فيها شخصية الرجل الذى يقدر كل التقدير منزلة الشريف، فهى رثاء العبقرية الموءودة فى كل زمان ، ونفحة من نفحات الاجلال للنبوغ المقتول، وللذكاء المحكوم عليه بالاهمال فى الشرق.

أفرد المؤلف فصلا عن (أسرار العلائق بين الرضى والصابى) مع ما بين الاثنين من اختلاف فى العقيدة ، وقد صور المؤلف فى مستهله قوة الصلة التى كانت تجمع بين أبى إسحق الصابى وأبى أحمد الموسوي والد الشريف ، ويعرض لأثر الكتاب فى هذا العصر (ص ٤٩ ج ٢) ، وإلى الألفة والتوافق فى المذاهب الأدبية ، وهذا من الفصول القوية التحرير ، القوية العرض ، الدقيقة البحث فى هذا الكتاب ؛ وحجة الدكتور فى هذه الصداقة التى تجمع بين الاثنين أن الصابى كان يحبب للشريف أن يطلب الخلافة الاسلامية لنفسه ، وكان الشريف شابا والشبان «يحبون أن يصلوا إلى قمم المجد فى يوم وليلة ، ويحبون عمن يزكيهم ويؤيدهم ويدعى لهم التفوق ، وقد تلفت الشريف وهو طفل فرأى شيخا جليلا يتنبأ له بمستقبل جليل فأحبه كل الحب » وفى هذا